« فنحن ايها السادة اينما ذهبنا ، رواد استقلال وتعاون واتحاد ووفاق بين المسيحيين والمسلمين ، ونحن نحمي هذا الاستقلال التام الناجز ونفديه بدمائنا وارواحنا ، ليس فقط ضد الغرب ، بل ضد الشرق ايضا (تصفيق) » · (حقائق لبنانية ـ المجلد الثاني ـ صفحة ١١١) ، مع ملاحظة ان عبارة الشرق ، عندما تستعمل في مخاطبة الخائفين من استقلال لبنان ، لا تعني في القاموس السياسي اللبناني ما تعنيه اليوم (الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي ، فهذا المعسكر لم يكن قائما على كل حال في ذلك الوقت المبكر) ولكنها تعني كيانا فضفاضا يضم العرب فيمن يضم، كما يعني تركيا والعالم الاسلامي بشكل عام ·

ويتضح من مذكرات الشيخ بشارة الخوري في المجلد الثاني (١٩٤٣ ـ ١٩٤١) ان همه الرئيسي في تلك الفترة الاستقلالية الاولى ، كان محاولة تثبيت الشخصية اللبنانية المستقلة ، وصياغة تفاصيلها، وفقا لمفهوم الميثاق الوطني ، ولعل ابرز اجزاء المذكرات في شرحهذا المجهود وتحديد معالمه السياسية والفكرية ، هو ذلك الجزء الذي يصف فيه رحلاته الثلاث الىالمحافظات اللبنانية المختلفة في الشمال والبقاع والجنوب (المجلد الثاني ، ١٥٧ ـ ١٩٤)، محاولا ان يستجمع من الخلفية السياسية والاجتماعية والروحية للعناصر الطائفية التي تكون المجتمع اللبناني ،مفاهيم مشتركة حول الاستقلال والعروبة وفلسطين الخ ···

فهو يقول في طرابلس :

«ولما سرنا على هذه السياسة الاستقلالية الجريئة ودفعنا عن انفسنا تهمة العزلة والانعزال ، وتلفتنا الى العرب الذين تجمعنا واياهم رابطة اللغة والعادات والاخلاق الشرقية (ملاحظة : هذا المعنى تأكيد لمفهوم « لشرق » كما حاولنا تعريفه في المقطع السابق) والمصلحة والاماني ، لم يعد في لبنان سلبيون وايجابيون ، لا مسلمون ولا نصارى ، بل صار الجميع شخصا واحدا ، لبنانيا ، استقلاليا ، قوميا ،عربيا، بكامله · واكبر شاهد على ذلك ما رأيناه في هذه البلدة التي لم تكن تهتف وتصفق لرئيس غير هذا الرئيس الذي ترى فيه رمزا لجمهورية لبنانية استقلاليةعربية ديمقراطية» (المجلد الثاني ـ صفحة ١٦١) ·

ثم يقول شارحا ـ في طرابلس ـ كيفية التوصل الى تحقيق الصيغة الاستقلالية :

« وتطرقت الى معجزة العهد وليست بالوحيدة من نوعها : « اذ اصبح الرئيس المسيحي اكثر اسلامية من رئيس وزرائه السني واصبح رئيس الوزارة السني اكثر مسيحية من الرئيس الماروني » · (المجلد الثاني ـ صفحة ١٦٢) ·

وهذا مشهد أخر في الديمان ، المقر الصيفي للبطريرك الماروني ،حيث قال بشارة الخوري مخاطبا البطريرك (في نفس الرحلة الشمالية) :

« ولذلك اطلب منه ان يمد بايامكم حتى تروا هذا الاستقلال ناجزا تجاه دول الغرب وجميع دول الغرب ، وناجزا ايضا تجاه دول الشرق وجميع دول الشرق » · (المجلد الثاني ـ صفحة ١٦٤) ·

وفي نفس الصفحة مشهد أخر في بشري:

« واتيح لي ان القي خطابا في البلدة المارونية لاطمئن الخائفين على مصير لبنان، ومن جملة ما ذكرته وجوب الجلاء ، فقلت : « ان الجلاء يجب ان يتم وشيكا ، ومن جميع انحاء لبنان ، واذا طلبنا الجلاء فلان وجود جندي اجنبي واحد عندنا يناقض استقلالنا، فضلا عن كونه يهدد اخواننا في الدجلة والنيل » ·

وهذا مشهد أخر من الرحلة الشمالية نفسها ، في اهدن (مشتى الزغرتاويين) حيث اراد بشارة الخوري طرح رأيه في